من أنماط الحجاج في علم المعاني

دكتور/علي فتح الله أحمد محمد
جامعة قطر

ملخص:

في مقدمة كتب «أهم نظريات الحِجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم» يذهب حمادي صمود إلى أن البلاغة العربية ليست بلاغة حجاجية، وهذا القول يجتاج لنظر، ولذا يحاول هذا البحث تلمس بعض السمات الحجاجية في علم المعاني، أحد علوم البلاغة العربية، لنجد مقولات واضحة تنص على الغرض الحجاجي في هذا العلم، بدءًا من بعض تعريفا البلاغة ، انتهاءً بأغراض بعض فنون البلاغة العربية منذ القدم، فالبلاغة العربية تحمل في طياتها تراثا متراكما مليئا بالتراكمات المعرفية التي يمكن استخلاص نظريات كاملة منها لمن يتمعن النظر فيها، وهنا سنحاول التركيز على بعض السمات الحجاجية لأحد علوم البلاغة وهو علم المعاني فقط، مقارنين بشكل مبدئي بين بعض مقولات الحجاج في البلاغة الفرنسية وبعض المفاهيم العربية في علم المعاني مثل تقسم الروابط الحجاجية التي تقترب من أغراض الفصل والوصل، والعوامل الحجاجية أو بعض الأغراض البلاغية لأساليب علم المعاني من قبل أسلوب القصر، وأسلوب الاستفهام، أو أسلوب التحول والالتفات، أو أسلوب الاطناب والمساواة.

الكلمات المفاتيح:

الحجاج – علم المعاني – العوامل الحجاجية – الروابط الحجاجية – الفئة الحجاجية– أسلوب القصر– أسلوب الاستفهام– أسلوب الإطناب والمساواة – أسلوب الإلتفات.

في عام نشر ١٩٥٨ بيرلمان Chaïm Perelman (١٩١٢-١٩٨٤) وتيتيكا Lucie Olbrechts-Tyteca (١٨٩٩-١٩٨٧) كتابهما عن البلاغة الجديدة[١] بعنوان "مصنف في الحجاج"، وبهذا فتحا أفقا بلاغيا جديدا بعدما كان الاهتمام منصبا على الجانب الأسلوبي للبلاغة؛ إذ ذاعت عبارة الناقد الفرنسي جورج بوفون Georges-Louis Leclerc, Comte de Buffon (١٧٠٧-١٧٨٨) "الأسلوب هو الرجل"[٢]، وهُمش الوجه الآخر للعملة البلاغية وهو الحجاج، وبالرجوع إلى التراث البلاغي سواء عند العرب أو عند اليونان نجد أن الاهتمام كان منصبا على كليهما، فقد فصّل أرسطو وسائل الإقناع، وبين أنواع الحجج والبراهين الزائف منها والحقيقي، وميز بين نوعين من البراهين: النوع الأول هو البراهين المنطقية، والنوع الثاني هو الحجاج البلاغي الذي يعتمده الخطباء (مصدرك في هذا)، كما أفرد كتابا كاملا للخطابة ناقش فيه كثيرا من جوانب الحجاج البلاغي. وفرق بين هذا النوع من الحجاج والسفسطة التي اعتمدها السفسطائيون، نظرا إلى قيامها على المغالطات اللغوية والعقلية.

وفي العصر الحديث جاء الفكر التداولي pragmatique ليصبح أحد أهم العوامل التي ساعدت على بلورة فكرة الحجاج وربطها بالبلاغة، "حيث كان أوستنJohn Langshaw Austin (١٩١١-١٩٦٠م) أول من بعث نظرية الأعمال اللغوية (التداولية)، وقد كانت الفلسفة تهتم باللغة منذ القدم، وكان البلاغيون القدامى تداوليين؛ إذ كانوا يفكرون في الصلات القائمة بين اللغة والمنطق (وخاصة المنطق الحجاجي) من جهة، وآثار الخطاب في السامع من جهة أخرى"[٣]، وهذه الفرضية التي عبر عنها بوضوح كتاب "how to do things with words" "كيف تنجز الأشياء بالكلمات"، وهي أن الكلام يتمثل في تبليغ الغير بعض المعلومات عن الشيء الذي يتم الكلام في شأنه، لكنه يتمثل أيضا في "فعل"؛ أي محاولة التأثير في مخاطب، بل في العالم المحيط، "فعوض أن نقابل الكلام بالفعل كما يقع عادة، ينبغي أن نعتبر القول في

١- Chaïm Perelman, Lucie Olbrechts - Tyteca: Traité de l'argumentation La nouvelle rhétorique, Ed. de l'Université de Bruxelles , ١ere édition, ١٩٥٨

٢- أحمد درويش: دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٩٨م، ص١٨.

٣- فيليب بلانشيه: التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا الطبعة الأولى ٢٠٠٧، ص٢٠.

حد ذاته شكلاً ووسيلة عمل"[١]. فكما تقول آن روبول: "يميز أوستن بين ثلاثة أنواع من الأعمال اللغوية: العمل الأول هو العمل القولي، وهو العمل الذي يتحقق ما أن نتلفظ بشيء ما، أما الثاني فهو العمل المتضمن في القول وهو العمل الذي يتحقق بقولنا شيئا ما، أما الثالث فهو عمل التأثير بالقول وهو العمل الذي يتحقق نتيجة قولنا شيئاما"[٢].

ومن هنا كان لابد من دراسة أثر القول باعتباره فعلا إنجازيا، وهذا ما تلقفته البلاغة الجديدة من خلال إعادة إنتاج فرضياتها، والعودة إلى جذور أهملت ردحا من الزمن تمثلت في الجانب الحجاجي خاصة لدى أزولد ديكرو وكلود أنسكومبر مكونين بذلك اتجاها تداوليا حجاجيا معتمدا على الفرضيات البلاغية هو التداولية المدمجة **(pragmatique intégrée)**[٣]، ويوضح ديكرو هذه العلاقة من خلال رسم توضيحي يحدد فيه العلاقة بين القول اللغوي والسياق الذي يرد فيه وربط ذلك بالمكونات البلاغية مما ينتج عنه معنى لهذا القول.

١- باتريك شارودو، ودومنيك منغنو: معجم تحليل الخطاب، ترجمة عبد القادر المهيري وحمادي صمود، منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس ٢٠٠٨، ص٢٠.

٢- آن روبول وجاك موشلار: التداولية اليوم علم جديد في التواصل ص٣١-٣٢.

٣ -Oswald Ducrot: Dire et ne pas Dire, principes semantique lingustique, Hermann, Paris ٢٠٠٣, p١١١-١١٣-١٣١.

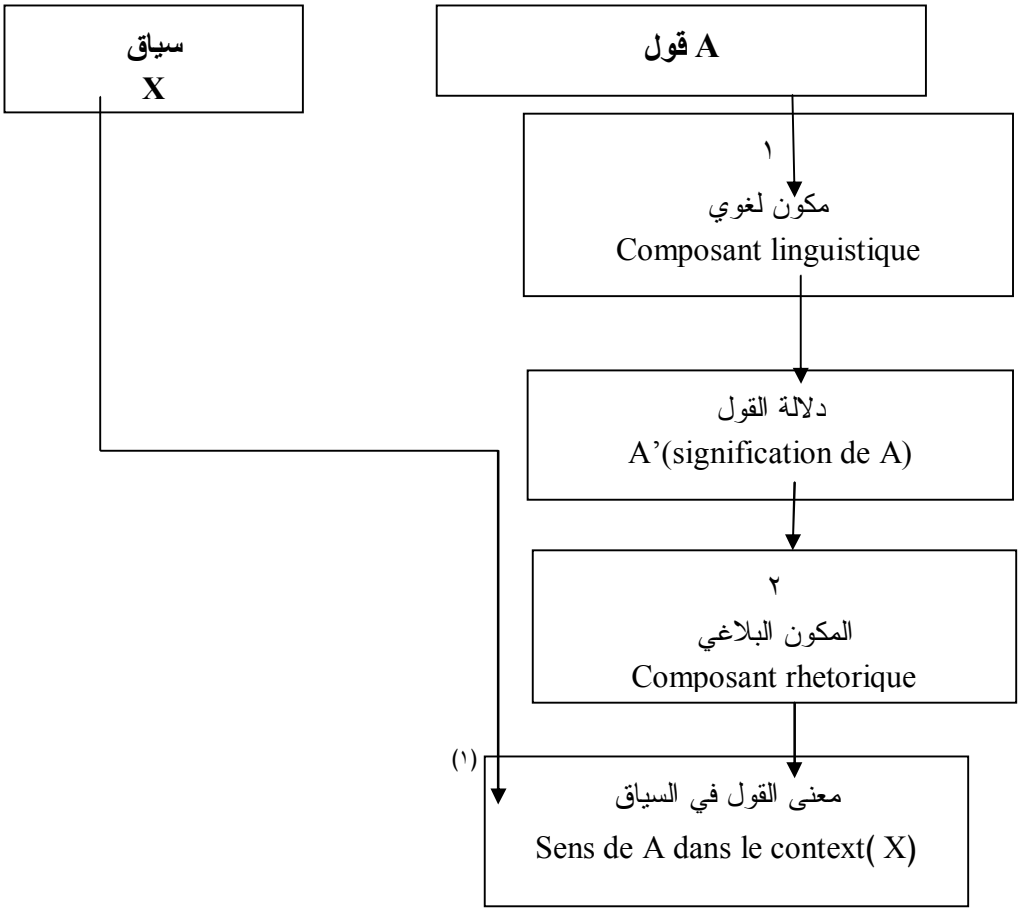

لكننا لو نظرنا في البلاغة العربية وطرحنا إشكالية محددة: هل البلاغة العربية بلاغة تداولية حجاجية أم لا؟ فإننا سنجد أننا لسنا في حاجة إلى التعمق في مفاهيم البلاغة العربية وفروعها لكي نصل إلى نتيجة صريحة تجيب عن هذه الإشكالية، وتعريفات البلاغة وحدها كفيلة أن تجيبنا عن ذلك، فإذا كانت التداولية "تهتم بقضية التلاؤم بين التعابير الرمزية والسياقات المرجعية والمقامية والحدثية"[٢]، فإن أحد تعريفات البلاغة العربية أنها "ملاءمة المقال للحال" "مطابقة المقال لمقتضى الحال" "مطابقة المقال للمقام"، وهذا ما يتطابق مع قضية التلاؤم بين التعابير التي هي المقال في البلاغة العربية، والسياقات التي تمثل الحال.

١ – Oswald Ducrot: Dire et ne pas Dire, p١١١.

٢– فيليب بلانشيه: التداولية من أوستين إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشة، ، ص١٨.

وبمقارنة تعريف الحجاج وبعض تعريفات البلاغة الأخرى فإننا نجد تطابقا بينهما، فمن ضمن التعريفات التي يوردها الجاحظ "جماع البلاغة البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة"(١)، ويعرف ابن المعتز البلاغة بأنها: "دنو المأخذ ونزع الحجة"(٢)، ويحدثنا حازم عن مفهوم البلاغة قائلا: "لما كان علم البلاغة مشتملا على صناعتي الشعر والخطابة، وكان الشعر والخطابة يشتركان في مادة المعنى ويفترقان بصورتي التخييل والإقناع ... وكان القصد في التخييل والإقناع حمل النفوس على فعل شيء أو اعتقاده أو التخلي عن فعله واعتقاده"(٣).

فمقارنة هذه التعريفات بتعريف بيرلمان للحجاج بأنه "ما يستغرق حقل الخطاب الذي يهدف إلى الإلزام والإقناع"(٤)، فإننا نلاحظ وجود تشابه يكاد يصا إلى حد التطابق بين تعريف البلاغة ومفهومها في التراث العربي وبين الحجاج بحسب تعريف أحد أهم مؤسسيه، لكن هل التفت إلى هذا الجانب من البلاغة العربية؟ وهل نوقشت التقنيات الحجاجية التى تتمتع بها البلاغة، فضلا عن مقارنة هذه التقنيات بالتقنيات الحجاجية في البلاغة الفرنسية؟

في حقيقة الأمر لم يقتصر أثر بيرلمان وتيتيكا في تجديد الفكر البلاغي على البلاغة الأوربية فقط، بل أثرا أيضا في الفكر البلاغي العربي خلال الفترة الأخيرة لنجد كمًّا هائلا من الدراسات البلاغية واللغوية والفلسفية التى تناولت الحجاج ومفاهيمه بالدرس والتحليل(٥)، لكن كل هذه الدراسات ركزت في مجملها على أمرين

١-الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، ج١، ص٨٨.

٢- عبد الله بن المعتز: كتاب البديع، نشره وعلق عليه إغناطيوس كراتشقوفسكي، دار المسيرة الكويت، الطبعة الثالثة ١٩٨٢، ص٦.

٣- حازم القرطاجني: منهاج البلغاء، ص١٩.

٤- ميشييل مايير: اللغة والمنطق والحجاج، ترجمة محمد أسيداه، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، عالم الكتب الحديث الأردن، ٢٠١٠، ج٥، ص٢٤.

٥وكان أول أثر لنظريات الحجاج على الدرس العربي الأكاديمي في تونس، وقد تميزت المدرسة التونسية في جامعة منوبة بالدراسات والبحوث الحجاجية النظرية والتطبيقية، وتعتبر رسالة الدكتوراه التي ناقشها الدكتور عبد الله صوله الموسومة بـــــ: "الحجاج في القرآن من خلال خصائصه الأسلوبية" في كلية الآداب بجامعة منوبة التونسية عام ١٩٩٧م، (وطبعت الطبعة الأولى ٢٠٠٢)، باكورة التوجه الحجاجي في الدراسات العربية التي فتحت الباب لاستكشاف تطبيقات مفاهيم الحجاج، وقد جاءت هذه الدراسة دراسة تطبيقة معمقة على النص القرآني، تتخذ المفهوم الواسع للحجاج -اللغوي والمنطقي- إطارا لها، ولم تحدد مدرسة أو اتجاها بعينه بقدر ما عرضت للحجاج في المفهوم الفرنسي، كما أنها لم تؤسس لمنطلقات نظرية عربية بقدر ما ناقشت تطبيقات قرآنية للبلاغة الحجاجية في فرنسا بمفهومها الواسع، فهي لم تبحث في=

الأول هو نقل النظرية الفرنسية على وجه التحديد في الحجاج عن طريق الترجمة أو العرض، الثاني تمثل في تطبيق بعض مبادئ الحجاج على التراث العربي خاصة القرآن الكريم، وجاء بعضها ليشير على استحياء إلى وجود الحجاج في البلاغة العربية، في حين ذهب بعض القائمين على درس الحجاج خاصة في بلاد المغرب العربي إلى أن البلاغة العربية بلاغة أسلوبية وليست حجاجية، ولذا لم يتم بحث التقنيات الحجاجية في البلاغة العربية لديهم فضلا عن مقارنة هذه التقنيات بالحجاج في البلاغة الفرنسية؛ ولذا سنحاول في هذا البحث معالجة هذا الجانب من خلال معالجة بعض الإشكاليات التى لم يهتم بمعالجتها بعد، أو أشير إليها عرضا لكن لم تناقش ولم تحلل بما يكشف عن الإمكانيات الحجاجية الكامنة فيها.

إذا كانت البلاغة الأوربية قد قطعت شوطا كبيرا في مجال الحجاج البلاغي، وصُنفت مؤلفات عدة تناولت العديد من جوانب الموضوع وعالجت جل إشكالياته مما شكل مدارس واتجاهات كاملة للحجاج، فإن الأمر في البلاغة العربية في عصرنا الحديث على خلاف ذلك تماما، مما يجعلنا بصدد طرح العديد من الإشكاليات منها: ما مدى معرفة التراث العربي بنظريات الحجاج وأنماطه؟ وهل البلاغة العربية بلاغة

=النظرية البلاغية عند العرب وتكشف الجانب الحجاجي منها. وجاء بعد ذلك كتاب تأسيسي في الحجاج عنوانه «أهم نظريات الحِجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم» (١٩٩٨) من تأليف مجموعة البحث في الحجاج بجامعة منوبة، بإشراف حمادي صمود الذي أنكر في تقديمه للكتاب أن تكون البلاغة العربية بلاغة حجاجية، وقصرها على الجانب الأسلوبي فقط، في السياق نفسه نذكر كتاب كورنيليا فونراد صكوحي «الحِجاج في المقام المدرسي» (٢٠٠٤)، لم تنطلق فيه الباحثة من البلاغة العربية، بل حاولت عرض مفاهيم الحجاج في البلاغة الأوربية. نشير هنا أيضا إلى أطروحة علي الشبعان التي أعدها للحصول على الدكتوراه من جامعة منوبة "الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل –في نماذج ممثلة من تفسير سورة البقرة بحث في الأشكال والاستراتيجيات" (٢٠٠٧) وهي رسالة ضخمة اعتنت بالحجاج في المفهوم الغربي وتطبيقه على سورة البقرة متخذة من رسالة الدكتور صوله هاديا تتبعه، وكتاب «الحِجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني الهجري: بنيته وأساليبه لسامية الدريدي(٢٠٠٨). وكتاب صابر الحباشة "التداولية والحجاج" (٢٠٠٨)، وكتاب محمد نجيب عمامي: «تحليل الخطاب السّردي، وجهة النظر والبعد الحجاجي» الصادر عن مسكيلياني للنشر ووحدة الدراسات السرديّة بكليّة الآداب والفنون والسرديّات بمنّوبة (٢٠٠٩)، مع مقدّمة لمحمد الخبو، ولا يفوتنا أن نذكر الكتاب الضخم الذي أعده حافظ إسماعيلي علوي بعنوان عنوان «الحِجاج مفهومه ومجالاته: دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة»(٢٠١٠)، وهو كتاب جاء في خمسة مجلدات بها دراسات مترجمة وأخرى تطبيقية وثالثة عرضت لبعض الدراسات والمدارس الغربية، وكذلك عدد عالم الفكر الخاص بالحجاج (٢٠١١)، وبه العديد من المقالات الرائعة التي اعتنت بدراسة الحجاج من المنظور الغربي خاصة المدرسة الفرنسية متخذة بعض الأمثلة العربية الشارحة، ومقالات أخرى تطبيقية انصب اهتمامها على النصوص التراثية العربية.، وتلى ذلك دراسات تحتاج كثيرة ليس هنا مجال لحصرها.

حجاجية أم بلاغة أسلوبية شكلية فقط؟ وما هي أشكال الحجاج البلاغي وأنماطه وتقنياته في علم المعاني على وجه التحديد؟ وهل تستطيع البلاغة العربية من خلال علم المعاني أن تضيف إلى نظريات الحجاج البلاغي؟ وإلى أي حد؟ وهل تقنيات الحجاج وأنماط هذه ما زالت صالحة للاستخدام في وقتنا الراهن في ظل ثورات العلوم وما تشهده من تطور مستمر؟ أم أن الزمن أفقدها هذه الصلاحية وأصبحت تقنيات لا تجيد التعامل إلا مع التراث؟

ولمعالجة هذه الإشكاليات يجب إعادة دراسة البلاغة العربية بشكل عام، لكن هذا ما لا تستطيع دراسة واحد أن تفي به مهما بلغ استيفاء جوانب البلاغة العربية بتاريخها الممتد؛ ولذلك وقع الاختيار على أحد علوم البلاغة للنظر في مقوماته الحجاجية؛ ونعني بذلك علم المعاني الذي سنتعقب تطوره منذ نشأة البلاغة حتى اكتمال بنائها، بدءا من أبي عبيدة في مجاز القرآن وصولا إلى شروح التلخيص والتعليقات البلاغية والمختصرات، مرورا بجهود الجاحظ وعبد القاهر الجرجاني وأبي هلال العسكري والسكاكي غير غافلين جهود المعاصرين في تقديم رؤية جديدة للبلاغة العربية.

وتظل الحاجة ماسة لمقارنة هذه النتائج مع ما اهتدت إليه البلاغة الأوربية في الحجاج؛ لكننا نجد أن الحجاج في البلاغة الفرنسية يعالج الكثير من الأشكال وله اتجاهات عدة، وإن كان البحث سيعالج الحجاج البلاغي بشكل عام، إلا أنه سيحدد بعد ذلك اتجاها واحدا هو الاتجاه القائم على دراسة الحجاج من خلال علم المعاني semantique لدى ديكرو وانسكومبر وماييير بوجه خاص وما يقابله في أحد علوم البلاغة العربية وهو علم المعاني.

ولكن لماذا علم المعاني على وجه التحديد دون غيره من علوم البلاغة؟

مرد ذلك أمران: الأول أن علم المعاني أكثر علوم البلاغة ارتباطا بتقنيات الحجاج – وهذا لا يعني نفي الحجاج عن بقية علوم البلاغة– فقد أفرد السكاكي بابا كاملا في مفتاحه للاستدلال والحجاج وربط هذا الباب بعلم المعاني على وجه التحديد: فقال في مقدمة هذا الباب: "الكلام إلى تكملة علم المعاني وهي تتبع خواص تراكيب

الكلام في الاستدلال، ولولا إكمال الحاجة إلى هذا الجزء من علم المعاني، وعظم الانتفاع به لما اقتضانا الرأي أن نرخي عنان القلم فيه"[١].

الثاني يتمثل في وجود المقابل الفرنسي المحدد المعالم وهو علم الدلالة semantique لدى ديكرو وانسكومبر، وارتباط هذا الاتجاه في معالجته للحجاج بعلم المعاني في البلاغة العربية، حيث تتطابق منطلقات وقضايا كثيرة، ويضاف إلى ذلك أن دراسات علم المعاني هي أكثر فروع البلاغة ارتباطا بالنظريات الحديثة مثل التداولية المدمجة Pragmatique intégrée لجمعها بين الجانبين البلاغي واللغوي في آن واحد.

تعتمد الدراسة بشكل أساس على منهج التحليل التداولي خاصة التداولية المدمجة التى رسخ أفكارها ديكرو في أبحاثه– لأنه يعالج بنية الظاهرة ويحللها من كافة الجوانب الاستعمالية، من خلال البحث عن المورفيمات التركيبية التى تعطي الظاهرة صفاتها المائزة عن بقية الظواهر البلاغية، أو تكشف عن ترابط بعض الظواهر مع بعضها البعض بحيث تكون مجموعة لها خصائص محددة، ومن هنا نستطيع تصنيف الظواهر البلاغية بما يكشف عن القوة الحجاجية لكل مجموعة مما يسيمه ديكرو الفئة الحجاجية. ويعمد البحث إلى الاستعانة بمناهج أخرى مثل المنهج المقارن للكشف عن أوجه الاتفاق بين البلاغة العربية والبلاغة الأوربية. والمنهج التاريخي لدراسة تطور الظاهرة البلاغية، والكشف عن تحولاتها.

مفهوم الحجاج في التراث العربي.

لا شك أن الثقافة العربية قد اهتمت بشكل عام بالحجاج الذي أرسى قواعده النص القرآني الذي دعا إلى التفكر ومقارعة الدليل في كثير من آياته وحض على الجدل والمناقشة والمحاورة ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[النمل:٦٤]. وفي سورة المؤمنون يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون:١١٧]. يشير النص القرآني صراحة إلى الحاجة إلى البرهان والدليل، وثمة الكثير من علوم العربية التي تتخذ من البرهنة

١–أبو يعقوب يوسف ابن أبي بكر محمد بن علي السكاكي: مفتاح العلوم، ضبط وتحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية لبنان، بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٧، ص٤٣٥.

وأدوات الحجاج أُسسا لها، مثل علم أصول الفقه، وعلم الكلام في الفلسفة الإسلامية، وهذه العلوم أصبح لها منهجها وقواعدها الحجاجية التي تعتمد عليها. مما جعل الحجاج يحتل مكانة رفيعة في الفكر الإسلامي ، فيصفه أبو الوليد الباجي بقوله: "وهذا العلم من أرفع العلوم قدرا وأعظمها شأنا، لأنه السبيل إلى معرفة الاستدلال وتمييز الحق من المحال، ولولا تصحيح الوضع في الجدل لما قامت حجة ولا اتضحت محجة ولا علم الصحيح من السقيم ولا المعوج من المستقيم"[١].

البلاغة العربية والفكر الحجاجي.

أولت البلاغة العربية منذ نشأتها الجانب الحجاجي اهتماما بالغا فقد كانت وظيفة البلاغة الرئيسة هي الإقناع[٢]، ونجد حديثا مفصلا عن مقامات المخاطب مثل الخالي الذهن والشاك والمنكر، وما يتلاءم مع كل واحد منهم من درجات التأكيد، ومثال هذا كثير، بل إن من أوائل من ألفوا في البلاغة العربية أبو عبيدة في كتابه مجاز القرآن، الذي كان الدافع من تأليفه محاججة من أنكر على القرآن مخاطبة العرب بغير كلامهم، يقول أبو عبيدة "أرسل إلي الفضل بن الربيع إلى البصرة في الخروج إليه ....، ثم دخل رجل في زي الكتاب وله هيئة حسنة، فأجلسه إلى جانبي، ... وقال لي: كنت إليك مشتاقا، وقد سئلت عن مسألة، أفتأذن لي أن أعرفك إياها؟ قلت: هات؛ فقال: قال الله تعالى ﴿طلعها كأنه رؤوس الشياطين﴾ (الصافات: ٦٥) وإنما يقع الوعد والإيعاد بما قد عرف مثله، وهذا لم يعرف، قال: فقلت: إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرئ القيس:

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول قط، ولكنه لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به، فاستحسن الفضل ذلك واستحسنه السائل، وأزمعت منذ ذلك اليوم أن أضع كتابا في القرآن لمثل ذلك وأشباهه، ولما يحتاج إليه من علمه، ولما رجعت إلى البصرة عملت كتابي الذي سميته المجاز"[٣].

١-أبو الوليد الباجي: المنهاج في ترتيب الحجاج، ت عبد المجيد تركي، دار المغرب الإسلامي١٩٨٧، ط ٢، ص٨.

٢- أحمد درويش: النص البلاغي في التراث العربي والأوربي، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٩٨، ص ١٠.

٣- ابن خلكان: وفيات الأعيان، ت إحسان عباس، دار صادر، المجلد ٥، ص٢٣٦.

ولو نظرنا في هذا الموقف نظرة متأملة لوجدناه موقفا حجاجيا كاملا، حيث يتخذ السائل موقفا حذرا من قضية محددة في القرآن الكريم ويستنكرها، فيرد عليه أبو عبيدة بالحجة والبرهان، ويوضح الأسلوب الحجاجي الذي استخدمه النص القرآني في إلقاء الرعب في النفوس عن طريق التهويل، وهو نمط من أنماط الحجاج البلاغي. وليس هذا موقف أبي عبيدة فقط بل إن التأليف البلاغي بعده اتخذ من الحجاج والبرهنة منهجا له وصرح عبد القاهر بذلك في دلائل الإعجاز، ففضلا عن اسم الكتاب الذي يشير صراحة إلى الحجة والدليل، نجده يقول: "واعلم أنه ليس للحجج والدلائل في صحة ما نحن عليه حد ونهاية، وكلما انتهى منه باب انفتح فيه باب آخر. وقد أردت أن آخذ في نوع آخر من الحجاج، ومن البسط والشرح، فتأمل ما أكتبه لك"[١]. بل إن أبا هلال العسكري في العمدة يحد البلاغة بقوله: "إنها مأخوذة من قولهم بلغت الغاية إذا انتهيت إليها، فهي كل ما تُبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه لتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة وعرض حسن"[٢]، وهذا التعريف يتطابق مع مفهوم الحجاج، خاصة عند بيرلمان؛ فأحد تعريفات الحجاج لديه هو "مجموعة من الأساليب أو التقنيات التي تقوم في الخطاب بوظيفة حمل المتلقي على التسليم بما يعرض عليه أو الزيادة في حجم هذا التسليم"[٣].

وربما يعود هذا الاتجاه الحجاجي المتمثل في تأثير القول إلى الأصل القرآني الذي استقت منه علوم العربية فلسفتها، قال تعالى ﴿إنّما أمرُهُ إذا أرادَ شيئًا أن يقولَ لَهُ كُنْ فَيَكون﴾ (يس٨٢)، فهذا النص القرآني يشير صراحة إلى تأثير الكلمة وإنجازها، ومن ثم اهتم الفكر البلاغي العربي بقيمة القول وتأثيره في النفوس مدفوعا بنظرته للقرآن الكريم والسنة؛ فقال الرسول– صلى الله عليه وسلم– :"إن من البيان لسحرا"، بل إن معجزة الإسلام هي معجزة لغوية تتعلق بتأثير النص اللغوي في النفس، هذا التأثير الذي يجعل سلامة موسى يعلق على بيت أبي تمام بقوله: "ولأبي تمام شطرة من بيت كثيرا ما تذكر. هي "السيف أصدق إنباء؟؟؟ من الكتب" والواقع أن أبا تمام لم يقل كلمة أبعد عن الصحة والحقيقة من هذه الشطرة. لأن السيوف لاتتحرك إلا للكلام الذي

١– عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ت محمود محمد شاكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص٤٢٩.

٢–أبو هلال العسكري: الصناعتين، ج١، ص١٦٥.

٣– Chaïm Perelman, Tyteca: Traité de l'argumentation, p١١

يسبقها، والكلام هو القوة الروحية المتسلطة، والسيف هو القوة المادية الخاضعة"[١]، ومن هنا نستنتج أن إدراك القوة الحجاجية المنجزة للكلمة كان جليا في التراث العربي ولدى المحدثين أيضا، مما جعلهم يفصلون تقنيات القول وطرقه، وهذا ما ستحاول الفصول القادمة الكشف عنه.

الروابط والعوامل الحجاجية.

نهتم هنا بدراسة القيم الحجاجية الناتجة عن استعمال أدوات الربط وهو ما يهتم به علم المعاني في باب الفصل والوصل وبعض المباحث الأخرى، لكننا في البدء لابد لنا من التفريق بين الروابط الحجاجية والعوامل الحجاجية، "فالروابط تربط بين قولين أو بين حجتين على الأصح أو أكثر، وتسند لكل قول دورا محددا داخل الاستراتيجية الحجاجية العامة"[٢]، لكن العوامل الحجاجية تختلف عن الروابط حيث تعمل على تقييد العلاقة بين المقدمة والنتيجة كما سنوضح لاحقا. وسيحاول البحث الكشف عن أنماط هذه الروابط وقيمتها الحجاجية وتصنيفها البلاغي، متخذا من التحليل البلاغي للنصوص التراثية مرشدا له ومحاولا تطبيق النتائج على نصوص برهانية معاصرة.

وتظل بعض إشكاليات التصنيف البلاغي لبعض الروابط التي تأتي أحيانا لربط قولين وفي سياقات أخرى تتحول إلى أدوات حجاجية لا تعمل على الربط بين القولين بقدر ما تعمل على تقييد المقولات ماثلة في هذا التصنيف، وهنا يبرز الاستخدام التداولي لهذه الروابط ليعالج هذه الازدواجية في الاستخدام، فللقصر "طرق منها العطف كقولك في قصر الموصوف على الصفة إفرادا –زيد شاعر لا كاتب، أو ما زيد كاتبا بل شاعر...."[٣]، وقد فصل البلاغيون القول في المواطن التي تأتي فيها أدوات العطف للتقييد كما سنرى خلال هذا الفصل.

الروابط الحجاجية.

هنا نناقش معاني أدوات الربط، والقضايا المتصلة بمستويات المعنى وتأثير ذلك على الوظيفة الحجاجية لهذه الروابط، حيث تتعدد معاني الرابط من ناحية، وتحل

١- سلامة موسى: البلاغة العصرية واللغة العربية، سلامة موسى للنشر والتوزيع دار مطابع المستقبل بالفجالة والاسكندرية ١٩٦٤، ص٩٠.

٢- أبو بكر العزازي: اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، الطبعة الأولى (طبعة خاصة) ٢٠٠٦، ص٢٧.

٣- الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، دار الكتب العلمية بيروت، ص ١٢٤، وأيضا عبد المتعال الصعيدي: بغية الايضاح لتلخيص المفتاح، مكتبة محمد على صبيح وأولاده، الطبعة الثامنة، الجزء الثاني، ص١٠.

بعض أدوات الربط محل بعضها البعض من ناحية أخرى؛ مما يحيلنا إلى التحديد من خلال السياق التداولي لهذه الروابط وما ينتج عنه من قوة حجاجية يتمتع بها الرابط، فهناك "عدد من الظواهر اللغوية قد استقرت في هذا المجال، فلوصف الرابط (puisque بما أن/ بحيث) يجب الإشارة إلى أن القول (أ) يأتي نتيجة للقول (ب) وأننا هنا لا نقوم بنقل محتوى خبري فقط، فمحتوى القول (أ) لا يؤثر بالضرورة في محتوى القول (ب)، لكنه يشير إلى أن القول (أ) يستلزم بالضرورة القول (ب)"[١] ومن هنا تنبع القوة الحجاجية من استخدام هذا الرابط على وجه التحديد بغض النظر عن المحتوى القضوي للجملة.

وقد فطن القدماء إلى القيم الحجاجية للروابط وتأثيرها في القول، ولم يكتفوا بالحديث عن الربط وحجيته بل فصل عبد القاهر في باب الفصل والوصل حتى جعل الترك البلاغي لربط الجمل نوعا من الحجاج والتأكيد في شرحه لقوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ. يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم ...﴾؛ فيقول: "إنما قال يخادعون ولم يقل ويخادعون لأن هذه المخادعة ليست شيئا غير قولهم آمنا من غير أن يكونوا مؤمنين، فهو إذن كلام أكد به كلام آخر هو في معناه وليس شيئا سواه"[٢]، فمن الجلي أن مسوغ جعل الكلام هو هو ومجيئه للتأكيد والإثبات ترك العطف وليس شيئا آخر.

العوامل الحجاجية.

إذا كانت الروابط تقوم بربط وتوضيح العلاقة بين المقدمة والنتيجة فإن "العوامل الحجاجية لا تربط بين متغيرات حجاجية (أي بين حجة ونتيجة أو بين مجموعة حجج)، ولكنها تقوم بحصر وتقييد الإمكانات الحجاجية التي تكون لقول ما، وتضم مقولة العوامل أدوات من قبيل: ربما، تقريبا، كاد، قليلا، كثيرا، ما .. إلا، وجل أدوات القصر"[٣]، ويبين عبدالقاهر هذه القيم الحجاجية للقصر بإنما من خلال تحليله لقوله تعالى ﴿**إنما يتذكّر أولو الألباب**﴾ حيث نجد أن التذكر قد قيد بأولي الألباب دون غيرهم، وجعله ثابتا فيهم وحجة على من ينكره عليهم، ونفي التذكر عن غيرهم، ليس

١ -Oswald Ducrot: les echelles argumentatives, p١٥.

٢- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص٢٢٨.

٣- أبو بكر العزازي: اللغة والحجاج، ص٢٧.

هذا فحسب "ولكن أن يذم الكفار، وأن يقال إنهم من فرط العناد وغلبة الهوى عليهم، في حكم من ليس بذي عقل، وإنكم وإن طمعتم منهم في أن ينظروا ويتذكروا، كنتم كمن طمع في ذلك من غير أولي الألباب"[١]، وكل هذه الدلالات الحجاجية إنما استفيدت من التقييد وليس من المحتوى القضوي للجملة، ومن هنا تأتي أهمية دراسة مقيدات الجملة في علم المعاني ووظائفها الحجاجية.

فالتقييد يتسع في دلالته الحجاجية ليشمل أمورا أخرى غير إثبات الحكم وتقييده، وهذا ما سماه عبد القاهر في باب القصر والاختصاص "التعريض" وقدم تفسيرا بلاغيا له فقال: "ثم إن العجب في أن هذا التعريض الذي ذكرت لك لايحصل من دون "إنما". فلو قلت: "يتذكر أولو الألباب" لم يدل ما دل عليه في الآية، وإن كان الكلام لم يتغير في نفسه، وليس إلا أنه ليس فيه "إنما". والسبب في ذلك أن هذا التعريض لإنما وقع بأن كان من شأن "إنما" أن تضمن الكلام معنى النفي من بعد الإثبات والتصريح بامتناع التذكر ممن لا يعقل، وإذا أسقطت من الكلام فقيل: "يتذكر أولو الألباب"، كان مجرد وصف لأولي الألباب بأنهم يتذكرون، ولم يكن فيه معنى نفي للتذكر عمن ليس منهم"[٢]. فالقيمة الحجاجية للقول كما يصفها ديكرو "هي نوع من الإلزام يتعلق بالطريقة التي ينبغي أن يسلكها الخطاب بخصوص تناميه واستمراره"[٣]، وهذا ما يتحقق من خلال التعريض الذي يستفاد من الأداة إنما في هذا السياق.

وهناك أدوات أخرى غير أدوات القصر لها قيمتها الحجاجية مثل "من" في قوله تعالى ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق﴾، التي يبين الزمخشري قيمتها الحجاجية فيقول: "فإن قلت أي فرق بين من ومن....، قلت الأولى لابتداء الغاية على أن فيض الدمع ابتدأ ونشأ من معرفة الحق، وكان من أجله وسببه، والثانية لتبين الموصول الذي هو ما عرفوا وتحتمل معنى التبعيض على أنهم عرفوا بعض الحق فأبكاهم وبلغ منهم، فكيف إذا عرفوه كله"[٤]، وهذا ما يتحقق من خلال المعاني الحجاجية الكامنة في استخدام "من" هنا دون غيرها

١-عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص٣٥٤.

٢- المرجع نفسه، ص ص٣٥٦-٤٥٧.

٣- Oswald Ducrot: Dire et ne pas dir,Hermann,paris ١٩٨٠, p٢٨٦

٤- الزمخشري: الكشاف، ج ١، ص٦٣٨-٦٣٩.

بغض النظر عن المحتوى، فالقيمة الحجاجية هنا نابعة من دلالة "من"، فالمحتوى القضوي هنا يأتي لاحقا لهذه الدلالة وليس فاعلا فيها.

كما أن من محددات الجملة التي تعمل على التقييد الشرط الذي يمثل قيمة حجاجية واضحة، فعندما نقوم بتحليل قوله تعالى ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ (الأنبياء ٢٢) نجد أن الحجاج في الآية قائم على العلاقات المؤسسة من خلال أسلوب الشرط بـــ (لو) على وجه التحديد، ولو حاولنا تغيير أسلوب الشرط بأداة أخرى لفقد النص معناه واختل بناؤه، لأن التركيب بـــ (لو) يدل بالضرورة على امتناع جملتي الشرط، ولذا سميت لو بأنها "انتفاء لانتفاء"[١]. ومن الجلي أن استنتاج نقيض جملة جواب الشرط "لم تفسد" لم نصل إليه بقوة العقل والمنطق ولكن من خلال الإرشادات التى قدمها أسلوب الشرط باستعمال (لو).

أنماط الروابط والعوامل الحجاجية:

لا تنتمي الروابط الحجاجية جميعها إلى وجهة حجاجية واحدة لكنها تختلف فيما بينها لنجد أنفسنا أمام روابط مؤسسة للعملية الحجاجية تعمل على تأكيد العلاقة بين المقدمة الحجاجية والنتيجة المترتبة عليها، وروابط مناقضة للحجة تعمل على عكس المقدمة الحجاجية مما يبرر اختلاف النتيجة ومسارها عن مسار المقدمات التى بنيت على أساسها، وفي هذا المبحث نحاول تصنيف الروابط حسب وجهتها الحجاجية.

الروابط والعوامل المؤسسة.

وهي الروابط التى تكمل مسار النتيجة الحجاجية في نفس اتجاه المقدمة، بحيث تكون النتيجة مترتبة على المقدمة ومبنية عليها، مثل الفاء التي تأتي للسببية أو التي تفيد التعقيب، مثل قولنا "محمد ذاكر فنجح" فالنتيجة هنا وهي النجاح لا تختلف في وجهتها عن المقدمة ولا تتناقض معها، كما أن النجاح هنا مبني على المذاكرة وجاءت الفاء لتمثل الرابط الحجاجي الذي يسوغ العلاقة بين المقدمة "محمد ذاكر" والنتيجة " محمد نجح".

الروابط والعوامل المناقضة.

وهي الروابط التي تختلف فيها الوجهة الحجاجية للنتيجة عن المقدمة، وأبرز أمثلتها "بل" و"لكن" و"بالرغم من ... فـــ ..."، فعندما نقول: "محمد ذاكر لكنه رسب"،

١- الأستراباذي: شرح الكافية، ج٤، ص٤٥١.

فإن المقارنة بين هذا المثال، والمثال السابق "محمد ذاكر فنجح" تظهر الفرق، فالمقدمة واحدة لكن النتيجة متناقضة في المثال الأول، ومتسقة مع المقدمة في المثال الثاني، وما جعل الاتساق هنا ممكنا وجعل التناقض في المثال الأول منطقيا ومترتبا على النتيجة هو الرابط المتمثل في "الفاء" في المثال الثاني و لكن" في المثال الأول، ولذلك فتحديد نوع الرابط هو ما يبرر اتساق المقدمة مع النتيجة، ومن ثم يحدد الوجهة الحجاجية التى تبرر النتيجة.

وليتضح الأمر أكثر، لنفترض تبديل الروابط في المثالين السابقين ليصبح الأول "محمد ذاكر فرسب، والثاني "محمد ذاكر لكنه نجح" نجد أن الجمل تصبح بدون معنى فالمعنى الحجاجي لا يحدده المحتوى الضمني للمقدمة والنتيجة، ولكن الرابط يمثل العنصر الأساس في تحديد هذا المعنى الحجاجي، بل هو الذي يجعل العلاقة بين المقدمة والنتيجة منطقية ومقبولة.

الأساليب البلاغية والحجاج

يقوم هذا الفصل على دراسة الأساليب البلاغية والحجج الكامنة فيها مثل أسلوب الشرط، والإنشاء الطلبي وغير الطلبي، وغير ذلك من الإرشادات "التي تقوم بتعيين الخطوات التي ينبغي اتباعها لتحديد معنى لهذا القول أو ذاك من الأقوال في الجملة التي تتضمن هذه الإرشادات"[1]، مثل التحول من صيغة لأخرى، أو ما يسمى الالتفات في البلاغة العربية، ولذلك جاء هذا الفصل في ثلاثة مباحث هي:

أسلوب الاستفهام.

إن للأساليب الإنشائية سواء أكانت طلبية أم غير طلبية قدرة حجاجية تكتسبها عن طريق استخدامها البلاغي؛ ومن هنا تنوعت الأغراض البلاغية للأساليب الإنشائية، ولنأخذ الاستفهام؛ فنحن على سبيل المثال "حينما نطرح سؤالا فإننا نقوم بشيء آخر غير إعلام المتلقي برغبتنا في المعرفة، وهو أننا نلزمه بالإجابة، ونعطيه دورا في نفس الوقت الذي نختار نحن فيه دورا آخر، وحينما نطلق أمرا أو وعدا أو إذنا .. فإن اللغة تحتوي على قائمة من العلاقات البشرية التي تتسم بالذاتية وعلى مجموعة من الأدوار؛

١ - Oswald Ducrot: le dir et le dit, editions de Minuit ١٩٨٤, p٨٠-٨١.

أي أنها تحتوي على جهاز متكامل من الاتفاقيات والقواعد التي تنظم الخطاب بين الأفراد"[١].

فالغرض من الاستفهام ليس الإخبار فقط بل إثبات حكم هذه الأخبار، فنحن لا نقدم إجابة بل نثبت العلاقة بين القضية التي يتم الاستفهام عنها والإجابة التي يستلزمها هذا الاستفهام؛ لنجد غرضا بلاغيا للاستفهام هو الإنكار، الذي جعله عبد القاهر أحد مقاصد للاستفهام يصبح ذا قيمة حجاجية واضحة، "واعلم أن الهمزة فيما ذكرنا تقرير بفعل قد كان، وإنكار له لم كان، وتوبيخ لفاعله عليه، ولها مذهب آخر، وهو أن يكون الإنكار أن يكون الفعل قد كان من أصله. ومثاله قوله تعالى ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا إنكم لتقولون قولا عظيما﴾ (سورة الإسراء)... فهذا رد على المشركين وتكذيب لهم في قولهم مما يؤدي إلى هذا الجهل العظيم"[٢]. وربما يأتي الاستفهام للتقرير "بغرض إلزام المخاطب بالحجة، وانتزاع الاعتراف منه بما يريده المتكلم"[٣].

أساليب التحول والالتفات.

لا شك أن "القيمة الحجاجية لقول ما ليست حصيلة المعلومات التى نقدمها فقط بل كيف نقدمها، فالجملة بإمكانها أن تشتمل على مورفيمات وتعابير وصيغ بالإضافة لمحتواها الإخباري تعطي توجيها حجاجيا للقول وتوجه المتلقي في هذا الاتجاه أو ذاك"[٤]، ومن أمثلة الحجاج المبني على القيمة البلاغية لمثل هذه الإرشادات أسلوب الالتفات، وقد قدم حسن طبل دراسة قيمة عن الالتفات في البلاغة العربية والمواضع التي ورد فيها في النص القرآني، وجاءت التحليلات التي قدمها كانت كاشفة عن القيم الحجاجية التي يتمتع بها أسلوب الالتفات، ففي شرحه لاستخدام الفعل "أنزل" و "نزّل" يقول: "ولما كان الوحي أمرا غيبيا قد تعوق التسليم به شبهات المكابرة ولجاجة الجدل، وكان الموحي به على العكس من ذلك أمرا محسوسا يقرع الأسماع وتردده الألسن – لما كان الأمر كذلك– اختيرت أقوى الصيغتين لجانب الوحى (وهي نزّل: لاصطباغ

---

١ – Oswald Ducrot:dire et ne pas dire, p٤-٥.

٢– عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص١١٤.

٣– فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني)، دار الفرقان للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الرابعة، ص١٩٣.

٤ – Oswald Ducrot: les Echelles Argumentatives, p١٥.

دلالتها بمعنى المبالغة والتأكيد كما مر)؛ وذلك تثبيتا لقلب الموحى إليه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به من جهة، ودحضا لافتراءات المنكرين ولجاجة المعاندين من جهة أخرى"[١].

والالتفات يأتي أيضا في الضمير "أعني من التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى آخر منها بعد التعبير بالأول"[٢]، "ومما ينخرط في هذا المسلك أيضا الرجوع من خطاب النفس إلى خطاب الجماعة، كقوله تعالى: ﴿وَمالِيَ لا أَعْبُدُ الَّذي فَطَرَني وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (سورة يس)، وإنما صرف الكلام عن خطاب نفسه إلى خطابهم لأنه أبرز الكلام لهم في معرض المناصحة، وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويداريهم، لأن ذلك أدخل في إمحاض النصح حيث لايريد لهم إلا ما يريد لنفسه"[٣]، فمشاركتهم النصح الذي يقدمه لنفسه هي دليل على صواب ما يقول وحجة له عليهم، فهو مثلهم في وجوب العبادة.

<u>الإيجاز والإطناب والمساواة.</u>

إن الإيجاز والإطناب والمساواة باب واسع له تفريعات عدة، وهناك تداخل شديد بين الإطناب والتكرير والتطويل، فعلى حد تعبير ابن الأثير "هذا النوع من الكلام أنعمت النظر فيه، وفي التكرير وفي التطويل؛ فملكتني حيرة الشبه بينهما طويلا"[٤]، والحيرة لا ترتبط لدى البلاغيين بالتفريق بينهما فقط بل ومقدار ما يقاس عليه كل من الإيجاز والإطناب "لكونهما نسبيين لا يتيسر الكلام فيهما إلا بترك التحقيق والبناء على شيء عرفي، مثل جعل كلام الأوساط على مجرى متعارفهم في التأدية للمعاني فيما بينهم، ولابد من الاعتراف بذلك مقيسا عليه ولنسميه: متعارف الأوساط"[٥]، وهذا يعني أن الاستعمال السائد هو الذي يحدد مقدار الكلام وما يزيد عنه فيدخله في باب الإطناب، أو ما ينقص عنه فيدخله في باب الإيجاز، والرأي عندي هو رأي الخطيب

١- حسن طبل: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، دار الفكر العربي ١٩٩٨، ص٥٩.

٢- جلال الدين عبد الرحمن أبو بكر السيوطي: معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت، المجلد الأول الطبعة الأولى ١٩٨٨، ص٢٨٦.

٣-ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، قدمه وعلق عليه أحمد الحوفي وبدوي طبانه، نهضة مصر للطبع والنشر، الطبعة الثاني، القسم الثاني، ص١٧٣.

٤- المرجع نفسه، ص٣٤١.

٥- السكاكي: مفتاح العلوم، ص٢٧٦.

القزويني الذي يرى أن الاعتبار هو بما يؤدي أصل المعنى من الألفاظ، فإن ساواه كان مساوة، وإن زاد عليه كان إطنابا وإن نقص عنه كان إيجازا أما الإخلال فهو نقص في الألفاظ نتج عنه قصر في تأدية المعنى[١]، وهذا يجعل الإيجاز والإطناب والمساواة من أدخل أبواب البلاغة في البحث التداولي.

ويرى ابن الأثير أن الإطناب يعد ضربا من ضروب التأكيد فيقول: "وبعد أن أنعمت نظري في هذا النوع الذي هو الإطناب وجدته ضربا من ضروب التأكيد التي يؤتى بها في الكلام قصدا للمبالغة"[٢]، بل إن الزركشي يجعل التكرار (أو التكرير) أبلغ من التأكيد؛ فقال "واعلم أن التكرير أبلغ من التأكيد"[٣]، وقال بذلك أيضا السيوطي "وهو أبلغ من التأكيد، وهو من محاسن الفصاحة خلافا لبعض من غلط"[٤]،

التراكيب الحجاجية في البلاغة

يرى ديكرو أن للغة " وظيفة أساسية تتمثل في الحجاج"[٥]، فقواعد الحجاج متضمنة في اللغة ويحددها منطق هذه اللغة فعلى حد قوله: "إن دراسة الحجاج تجعلنا نلاحظ ما يمكن أن أسميه من خلال البحث في الاستدلال والقول "منطق اللغة"؛ أي تلك القواعد المتضمنة في الخطاب والتي تحدد مساراته"[٦]. هذا الموقف يحيلنا مباشرة إلى تفريق عبدالقاهر بين المجاز العقلي والمجاز اللغوي عندما يقول: "المجاز يقع تارة في الإثبات وتارة في المثبت، وأنه إذا وقع في الإثبات فهو طالع عليك من جهة العقل، وباد من أفقه، وإذا عرض من ناحية المثبت فهو آتيك من ناحية اللغة"[٧].

النظم والتموضع.

عندما ننظر على سبيل المثال في ترتيب أجزاء الكلام وموضع كل كلمة من هذا الترتيب نجد أنفسنا أمام قيمة حجاجية لأنماط التركيب مما يجعلنا نعود إلى مفهوم

١- عبد المتعال الصعيدي: بغية الايضاح لتلخيص المفتاح، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح، الطبعة الثامنة، الجزء الثاني، ص ١١٢.

٢- ابن الأثير: المثل السائر، ص٣٤٢.

٣- الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل، ج ٣، ص١١.

٤- جلال الدين السيوطي: معترك الأقران في إعجاز القرآن: تحقيق علي محمد البجاوي: القسم الأول، ص٣٤١.

٥ - Oswald Ducrot: les Echelles Argumentatives,p٨.

٦ - Ibid,p١٢.

٧- عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص٣٤٦.

النظم عند عبد القاهر الجرجاني، وهو ما خلص إليه كل من ديكرو وأنسكومبر من خلال عودتهم لمفهوم الموضع (Topoi) الذي حدده أرسطو محاولين تطوير هذا المفهوم.

ولنتصور أن ثمة رجلا يسأل عن موظف (أ) لديه لترقيته فجاء بمديريه وسألهما عنه فقال الأول : (أ) في غاية الأمانة لكنه كسول.

وقال الآخر: (أ) كسول لكنه في غاية الأمانة.

عندما نقوم بتحليل مجرد لما جاء في قول كل منهما نجد أنهما متفقان على المحتوى تماما فكلاهما يرى أن (أ) في غاية الأمانة، وكلاهما أيضا يتفق على أنه كسول، وأيضا كلاهما استخدم رابطا حجاجيا واحدا هو "لكن"، لكن اختلاف ترتيب أجزاء الكلام يوحي لنا بنتائج عكسية تماما، فنحن نستنتج أن المدير الأول اتخذ موقفا سلبيا من الموظف لكن المدير الآخر اتخذ موقفا إيجابيا، بالرغم من أنهما اتفقا في المحتوى الخبري، وفي أسلوب عرضه أيضا مستخدمين رابطا حجاجيا واحدا، لكن اختلاف ترتيب أجزاء الكلام بحيث نقدم أو نؤخر أحد أجزائه هو ما أعطى لنا مؤشرا في هذا الاتجاه دون سواه.

العلاقة الإسنادية.

ومن التقنيات البلاغية التي تكمن في اللغة وتعتبر أحد أهم التقنيات الحجاجية الإسناد، يقول الزمخشري في تفسيره لقوله تعالى ﴿**خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ**﴾[البقرة ٧]، "فإن قلت: فلم أسند الختم إلى الله تعالى، وإسناده إليه يدل على المنع من قبول الحق والتوصل إليه بطرقه وهو قبيح والله يتعالى عن فعل القبيح علوا كبيرا لعلمه بقبحه وعلمه بغناه عنه؛ وقد نص على تنزيه ذاته .. قلت: القصد إلى صفة القلوب بأنها كالمختوم عليها، أما إسناد الختم إلى الله عز وجل، فلينبه على أن هذه الصفة في فرط تمكنها وثبات قدمها كالشيء الخلقي غير العرضي، ألا ترى إلى قولهم: فلان مجبول على كذا ومفطور عليه، يريدون أنه بليغ في الثبات عليه"[١]. ومعلوم أن الحجة تكمن في الختم على قلوبهم، وأن القيمة

١- جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ت عادل أحمد وعلي محمد، الجزء الأول، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى ١٩٩٨، ص١٦٥-١٦٧.

الحجاجية تولدت من إسناد الختم إلى الله عز وجل. ومن العلاقات الإسنادية التى نجد لها قيمة حجاجية التقديم والتأخير والبناء لما لم يسمَّ فاعله وغير ذلك من الظواهر.

السلم الحجاجي.

يعتمد مفهوم السلم الحجاجي على التعريف بمفهوم سابق هو الفئة الحجاجية (classe argumentative)؛ فعندما يكون لدينا حجة "أ" وحجة "ب" يخدمان نتيجة "د"؛ فإن الحجتين "أ" و "ب" ينتميان لفئة حجاجية واحدة[١]. لكن هنا يكمن السؤال الذي ستكون إجابته بمثابة تحديد لمفهوم السلم الحجاجي، وهو أي الحجتين ("أ" أم "ب") أقوى في التدليل على "د" ؟، وأي الحجتين تكون متضمنة للأخرى؟ إن تحديد مراتب الحجج وقوة كل حجة هو ما يكون لدينا السلم الحجاجي، أما العلاقات المترتبة على ترتيب هذه الحجج والنتيجة هو ما سينتج عنه قوانين السلم الحجاجي، وقد أفرد ديكرو كتابا كاملا للحديث عن السلم الحجاجي وما يتعلق به هو السلالم الحجاجية " les Echelles Argumentatives".

مفهوم السلم الحجاجي والفئة الحجاجية.

يحدد ديكرو السلم الحجاجي بقوله: عندما تكون "أ" أقوى في التدليل على "د" من "ب" و "أ" و"ب" ينتميان لفئة حجاجية واحدة فإن مرتبة الحجة "أ" أعلى من مرتبة "ب" في السلم الحجاجي، فالسلم الحجاجي بمثابة ترتيب لقوة الحجج والعلاقات القائمة بين هذه الحجج من ناحية والنتيجة المترتبة عليها من ناحية ثانية، أو على حد تعبيره "تكون الحجة p' أقوى من الحجة p، وإذا كانت كل فئة حجاجية تتضمن p' تتضمن أيضا p، وإذا كانت p' في كل مرة أقوى من p"[٢]، ومن هنا يأتي تصنيف قوة الحجة باعتبار ما هو أقوى منها وما هو أضعف منها لتكون الفئة الحجاجية.

وليس أدل من الطبيعة الحجاجية لعلم المعاني من مقامات المخاطب أو ما أطلق عليه البلاغيون اعتبارات الإسناد الخبري[٣] التي تتطابق تقريبا مع مفهوم السلالم الحجاجية، فتحديد قوة كل حجة ومكانها من بقية الحجج قد ناقشه علم المعاني وقدم فيه تفصيلا لا نجده لدى ديكرو أو غيره من منظري الحجاج في البلاغة الأوربية، ففي

---

١ – Oswald Ducrot: les Echelles Argumentatives,p١٧.

٢ – Oswald Ducrot: les Echelles Argumentatives,p٢٠.

٣– السكاكي: مفتاح العلوم، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمة بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٧، ص١٧٠.

مناقشة ديكرو للسلم الحجاجي، وبرغم منهجه البنيوي التداولي إلا أنه لم يصل لبنية متدرجة محددة لقياس قوة الحجة، ولم يحدد لنا الأدوات الحجاجية المستخدمة، والتي نستطيع من خلالها تحديد القوة، لكن البلاغيين العرب في باب أحوال الإسناد قدموا رؤية بلاغية متكاملة مبنية على جانب وصفي بنيوي وجانب تداولي.

الجانب الوصفي البنيوي تمثل لديهم في تحديد ما يناسب مقامات المخاطب من تأكيد، ومناقشة أدوات التوكيد وأساليب العرب فيه، أما الجانب التداولي فيتمثل في اعتبار حالة المتلقي ومناسبة المقال له من ناحية وتنزيل المتلقي من حالة إلى حالة أخرى وهنا نجد تحديدا للسلم الحجاجي بما يتلاءم مع المتلقي ولنتأمل قول السكاكي "... فتستغني الجملة عن مؤكدات الحكم، وسمي هذا النوع من الخبر ابتدائيا. وإذا ألقاها إلى طالب لها متحير طرفاها عنده دون الإسناد، فهو منه بين بين، لينقذه عن ورطة الحيرة استحسن تقوية المنقذ بإدخال اللام في الجملة .. وسمي هذا النوع من الخبر طلبيا.

وإذا ألقاها إلى حاكم فيها بخلافه، ليرده إلى حكم نفسه استوجب حكمه ليترجح تأكيدا بحسب ما أشرب المخالف الإنكار في اعتقاده، كنحو: صادق إني، لمن ينكر صدقك انكارا، وإني لصادق لمن يبالغ في إنكار صدقك، ووالله إني لصادق"[1].

وهنا نجد أن السكاكي قسم السلم الحجاجي إلى ثلاث مراتب عامة هي الابتدائي والطلبي والإنكاري، وفصل بعض المراتب وجعلها درجات سلمية داخلية؛ ففصل درجات المنكر فجعل درجة لمن ينكر ودرجة أخرى لمن يبالغ في الإنكار، وهذه منهجية دقيقة تعتمد على الفكر البنيوي الذي يبحث في بنية اللغة وما تحتويه من مورفيمات، وجعل لكل مرتبة ودرجة تدرجا في استعمال الأدوات الحجاجية الملائمة لهذا المقام الحجاجي، وهذا الجانب تداولي صرف يوضع فيه الاستعمال وما يحيط به من ظروف وسياقات موضع الاهتمام.

قوانين السلم الحجاجي:

بما أن الأقوال لا تمثل درجة واحدة في الإثبات بالرغم من أنها تخدم نتيجة واحدة فلابد من وجود روابط بين هذه الحجج تكون في مجموعها الفئة الحجاجية، وهذه العلاقة التي تكشف عن مكان الحجة من بقية الحجج التي تشاركها الفئة الحجاجية نفسها

١- السكاكي: مفتاح العلوم، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٧، ص١٧٠- ١٧١.

هي ما يكون قوانين السلم الحجاجي، وقد حدد ديكرو ثلاثة قوانين تحكم العلاقة التراتبية بين الحجج التي تنتمي إلى فئة حجاجية واحدة هي:

١- قانون النفي: بمعنى أن نفي الحجة يعني عكس النتيجة، "فإذا كان القول (أ) يخدم نتيجة معينة؛ فإن نفيه (لا أ) يصبح حجة للنتيجة المضادة "[١].

٢- قانون القلب: وهذا القانون مبني على قانون النفي والفرق بينهما أن قانون النفي يتعلق بالحجة المفردة وقانون القلب يتعلق بالفئة الحجاجية بكل حججهاالمثبتة، ويكون عكس سلم وترتيب الحجج في الأقوال المنفية، فمجموع الحجج التي تثبت نتيجة محددة ولكل حجة مكانها في السلم الحجاجي، يتم عكس ترتيبها في حالة النفي[٢].

٣- قانون الخفض: ويعني أن كل ما يصدق على حجة محددة في السلم الحجاجي يصدق على كل ما يقع تحتها في السلم الحجاجي[٣].

١- Oswald Ducrot: les Echelles Argumentatives,p ٢٧.

٢- Oswald Ducrot: les Echelles Argumentatives,p ٢٧.

٣- Ibid,p ٢٨.

خاتمة:

إن العودة إلى التراث العربي ومحاولة إعادة قراءته قراءة مبنية على ما وصلت إليه الدرسات الحديثة تجعلنا نعيد اكتشاف مواطن الطاقة الكامنة في هذا التراث، ولذلك فالبحث العربي يحتاج أن يعيد قراءة هذا التراث دون أن يتحامل عليه فينطقه بما ليس فيه، أو يهون من طاقته الكامنة هروبا من التعمق في مجاهيله، ويحاول هذا البحث أن يخوض غمار هذه التجربة من خلال قراءة أحد علوم البلاغة العربية وهو علم المعاني ومقارنته بما وصلت إليه الدراسات الحديثة في هذا المجال، واستطاع من خلال القراءة الأولية أن يتلمس بعض المؤشرات التي توضح إلى أي مدى تتسع البلاغة العربية لتشمل أنماطا مختلفة تستوعب ما وصل إليه البحث الحديث.

المراجع:

١. Chaïm Perelman, Lucie Olbrechts - Tyteca: Traité de l'argumentation La nouvelle rhétorique, Ed. de l'Université de Bruxelles , ١ere édition, ١٩٥٨
٢. Oswald Ducrot: Dire et ne pas Dire, principes semantique lingustique, Hermann, Paris ٢٠٠٣,
٣. Oswald Ducrot: les Echelles Argumentatives
٤. آن روبول وجاك موشلار: التداولية اليوم علم جديد في التواصل.
٥. أبو الوليد الباجي: المنهاج في ترتيب الحجاج، ت عبد المجيد تركي، دار المغرب الإسلامي١٩٨٧، ط ٢.
٦. أبو بكر العزازي: اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، الطبعة الأولى (طبعة خاصة) ٢٠٠٦.
٧. أبو هلال العسكري: الصناعتين،.
٨. أبو يعقوب يوسف ابن أبي بكر محمد بن علي السكاكي: مفتاح العلوم، ضبط وتحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية لبنان، بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٧.
٩. أحمد درويش: النص البلاغي في التراث العربي والأوربي، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٩٨.
١٠. أحمد درويش: دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٩٨م.
١١. أهم نظريات الحِجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم» (١٩٩٨) من تأليف مجموعة البحث في الحجاج بجامعة منوبة، بإشراف حمادي صمود
١٢. ابن الأثير: المثل السائر.
١٣. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ت إحسان عباس، دار صادر،.
١٤. الأستراباذي: شرح الكافية.
١٥. الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل.
١٦. الحِجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني الهجري: بنيته وأساليبه لسامية الدريدي(٢٠٠٨).

١٧.الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، دار الكتب العلمية بيروت، ص ١٢٤، وأيضا عبد المتعال الصعيدي: بغية الايضاح لتلخيص المفتاح، مكتبة محمد على صبيح وأولاده، الطبعة الثامنة،.
١٨.الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل.
١٩.السكاكي: مفتاح العلوم، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمة بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٧،
٢٠.باتريك شارودو، ودومنيك منغنو: معجم تحليل الخطاب، ترجمة عبد القادر المهيري وحمادي صمود، منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس ٢٠٠٨.
٢١.جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ت عادل أحمد وعلي محمد ، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى ١٩٩٨،
٢٢.جلال الدين السيوطي: معترك الأقران في إعجاز القرآن: تحقيق علي محمد البجاوي،.
٢٣.جلال الدين عبد الرحمن أبو بكر السيوطي: معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت، المجلد الأول الطبعة الأولى ١٩٨٨.
٢٤.حازم القرطاجني: منهاج البلغاء.
٢٥.حافظ إسماعيلي علوي: «الحِجاج مفهومه ومجالاته: دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة»(٢٠١٠
٢٦.حسن طبل: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، دار الفكر العربي ١٩٩٨.
٢٧.سلامة موسى: البلاغة العصرية واللغة العربية، سلامة موسى للنشر والتوزيع دار مطابع المستقبل بالفجالة والاسكندرية ١٩٦٤.
٢٨.صابر الحبابشة "التداولية والحجاج" (٢٠٠٨)،
٢٩.ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، قدمه وعلق عليه أحمد الحوفي وبدوي طبانه، نهضة مصر للطبع والنشر، الطبعة الثانية.
٣٠.عالم الفكر (٢٠١١)،
٣١.عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة.
٣٢.عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ت محمود محمد شاكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٣٣.عبد الله بن المعتز: كتاب البديع، نشره وعلق عليه إغناطيوس كراتشقوفسكي، دار المسيرة الكويت، الطبعة الثالثة .

٣٤.عبد الله صوله الموسومة بـــــ: "الحجاج في القرآن من خلال خصائصه الأسلوبية" في كلية الآداب بجامعة منوبة التونسية عام ١٩٩٧م، (وطبعت الطبعة الأولى ٢٠٠٢)،

٣٥.عبد المتعال الصعيدي: بغية الايضاح لتلخيص المفتاح، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح، الطبعة الثامنة.

٣٦.علي الشبعان التي أعدها للحصول على الدكتوراه من جامعة منوبة "الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل –في نماذج ممثلة من تفسير سورة البقرة بحث في الأشكال والاستراتيجيات" (٢٠٠٧)

٣٧.فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني)، دار الفرقان للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الرابعة.

٣٨.فيليب بلانشيه: التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا الطبعة الأولى ٢٠٠٧.

٣٩.كورنيليا فونراد صكوحي «الحِجاج في المقام المدرسي» (٢٠٠٤)،

٤٠.محمد نجيب عمامي: «تحليل الخطاب السّردي، وجهة النظر والبعد الحجاجي» الصادر عن مسكيلياني للنشر ووحدة الدراسات السرديّة بكليّة الآداب والفنون والسرديّات بمنّوبة (٢٠٠٩)،

٤١.ميشيبل مايير: اللغة والمنطق والحجاج، ترجمة محمد أسيداه، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، عالم الكتب الحديث الأردن ٢٠١٠.